

دلائل الإعجاز

واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرتَه أن لم يحتج واضعُه إلى فكرٍ ورويةٍ حتى انتظم له . بل ترى سبيلَه في ضم بعضه إلى بعض سبيل مَن عمداً إلى لآلٍ فخرطَها في سلكٍ لا يبغى أكثرَ من أن يمنعها التفرُّقَ وكمن نَضَدَ أشياءَ بعضها على بعض لا يُريدُ في نضدهِ ذلكَ أن تجيءَ له منه هيئةٌ أو صورةٌ بل ليس إلا أن تكونَ مجموعةً في رأيِ العَيْنِ . وذلك إذا كان معنَاكَ معنى لا يحتاجُ أن تصنعَ فيه شيئاً غيرَ أن تعطفَ لفظاً على مثله كقولِ الجاحظ : " جنَّبكَ اللُّهُ الشُّبُهَةَ وعصَمَكَ مِنَ الحَايِرَةِ وجعلَ بينَكَ وبينَ المعرفةِ سَبَاباً وبينَ الصِّدْقِ سَبَاباً وحبَّبَ إِلَيْكَ التَّثْبُوتَ وزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الإِنصَافَ وأذَاقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى وأشعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ وأودَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليَقِينِ وطَرَدَ عَنكَ ذُلَّ اليَأْسِ وعَرَّفَكَ مَا فِي البَاطِلِ مِنَ الذَّلِيلَةِ وَمَا فِي الجَهْلِ مِنَ القِلَّةِ " . وكقولِ بعضهم : " دَرَّ خَطِيبٍ قَامَ عِنْدَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَا أَفصَحَ لِسَانَهُ وَأحْسَنَ بَيَانَهُ وَأَمْضَى جَنَانَهُ وَأَبْلَسَ رِيقَهُ وَأَسْهَلَ طَرِيقَهُ " . ومثله قولُ النابغةِ في الثَّنَاءِ المَسْجُوعِ : " أَيُفَاخِرُكَ المَلِكُ اللّاحِمِيُّ فَوَايَ لِقَافَاكَ خَيْرٌ مِنْ وَجْهِهِ وَلشَمَالُكَ خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ ولَأخْمُ مَصْرُوكِ خَيْرٌ مِنْ رَأْسِهِ وَلِخَطْوُكَ خَيْرٌ مِنْ صَوَابِهِ وَلَعِيَّتُكَ خَيْرٌ مِنْ كَلَامِهِ وَلِخَدْمُكَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمِهِ " . وكقولِ بعضِ البلغاءِ في وصفِ اللسانِ : " اللسانُ أَدَاةٌ يَظْهَرُ بِهَا حَسَنُ البَيَانِ وَظَاهِرٌ يَخْبِرُ عَنِ الضَّمِيرِ وَشَاهِدٌ يَنْبِئُكَ عَنِ غَائِبِ وَحَاكِمٌ يَفْصَلُ بِهِ الخُطَابُ وَوَاعِظٌ يَنْهَى عَنِ القَبِيحِ وَمزِيدٌ يُدْعُو إِلَى الحَسَنِ وَزَارِعٌ يَحْرَثُ المودَّةَ وَحَاصِدٌ يَحْصِدُ الصَّغِينَةَ وَمُلهٍ يُؤنِقُ الأَسْمَاعَ " .

فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضلٌ إذا وجبَ إلا بمعناهُ أو بمُتُونِ أَلْفَاظِهِ دونَ نظْمِهِ وتَأليفِهِ وذلكَ لأنه لا فضيلةَ حتَّى ترى في الأمرِ مَصْدَعاً وحتى تجدَ إلى التخيُّرِ سبيلاً